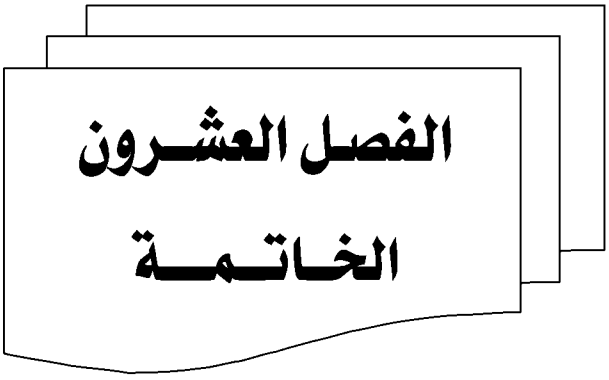
الفصل العشرون
الخاتمة

من خلال هذه القراءة الموسَّعة التي تناولنا فيها بقدر استطاعتنا موضوع الصهيونية من كل جوانبه واتجاهاته عبر العصور، وإلقائنا نظرة على الصفات والاعتبارات والتباين الذي ميز الجماعات اليهودية في العالم عن غيرها، ومن خلال تسليطنا الضوء على نظرة أوروبا الغربية قديمًا للمهاجرين اليهود الذين أتوها من روسيا وبولندا وأوكرانيا وغيرها ثم تحالف أوروبا وتعاونها على خلق الصهيونية، لكل تلك الأسباب وغيرها لا نجد إلا أن نؤكد بأن الجذور الغربية للحركة الصهيونية التي أضيف إليها فيما بعد البُعد اليهودي (الديني والاثني والإنساني)، وهو بالمناسبة لا يعدو إلا أن يكون بُعدًا زخرفيًا تجميليًا تبريريًا خداعيًا، وقد أضيف من أجل مقدرته التعبوية لإنجاح المشروع الاستعماري لخلق دولة مانعة وحاجزة في المنطقة بين العرب، تتوفر فيها العناصر الغربية الأساسية المادية والمعنوية، التي دخلت في تكوين الرؤية الصهيونية للواقع، وإلا لماذا لم تقم لليهود قائمة منذ مئات السنين، وهم منذ السبي البابلي كان شعراؤهم يتغنون بالقدس، ولماذا فقط في القرن التاسع عشر استطاعوا أن يوجدو حركة سياسية، ما كان لها أن تكون، ولا أن تستمر، ولا أن تثمر، لو أن الغرب لم يأخذ بيد زعمائها وعمل على تقديم التسهيلات والإمكانيات، وساهم في كل ما له علاقة بالمشروع القومي اليهودي، ومازال حتى اللحظة يقف بجانب الدولة الصهيونية التي أقيمت في فلسطين.

إن مما لا شك فيه أن الصهيونية هي إفراز عضوي للحضارة الغربية، ولِما يمكن أن يُطلق عليه بالحداثة، تلك الحداثة الأوروبية التي هدفت إلى تحويل البشر (اليهود) إلى مادة استعمالية توظف لصالح الأقوى، وهو ما انطبق على المسعى الأوروبي حينما هدف إلى استعمال المادة البشرية لصنع دولة صهيونية وظيفية، لا شك بأن الظواهر الاجتماعية التي صاحبت الثورة الرأسمالية قد تأثرت بالاستعمار وبالفكر العنصري، وأن الثورة الرأسمالية التي تواكبت مع تدفق المهاجرين اليهود من الشرق، هي التي أدت إلى ظهور المسألة اليهودية، وأدت إلى ظهور الحل الصهيوني، لهذا مستحيل أن نرى الصهيونية خارج السياق

الاستعماري الإمبريالي، إن الهجرة الجماعية اليهودية إلى فلسطين لم تكن مطروحة أساسًا على المستوى الديني، فعودة اليهود إلى القدس ظلت مقرونة بإرادة الرب وهو الذي فقط يشاء، ولن تتم على أيدي الأفراد أو من الأفكار التي أتى بها التشكيل الحضاري الغربي الذي سعى من أجل مصالحه إلى إنشاء دولة لليهود، تفرض نفسها كمرجع أخلاقي وأدبي ليهود العالم أو كما تَعتبر إسرائيل نفسها حاليًا.

هذا، وإن الجماعات اليهودية لم تعزل نفسها عن المجتمعات الأخرى التي عاش اليهود بين ظهرانيها كما شاع قبلاً، فالتهمة أحيانًا تكون مختلقة ومفبركة، لماذا لا يكون العزل قد حدث من المجتمعات الأوروبية التي لم ترحب باليهود أصلاً، تلك التي مارست العنصرية والعداء ضدهم، لم نسمع أن اليهود عزلوا أنفسهم في بابل أو في الجزيرة العربية قبل الإسلام أو في أسبانيا الإسلامية، ولم نسمع أن اليهود في البلاد العربية قبل إعلان إسرائيل قد عزلوا أنفسهم في مصر أو العراق أو سوريا وحتى في فلسطين، فهذا سؤال يجب أن يسأله لنفسه كل عربي فربما يتمكن من الوصول إلى الحقيقة، السبب في أنهم لم يعزلوا أنفسهم، هو لأنهم في الواقع قد اندمجوا في هذا المحيط الحضاري الذي أعطاهم الأمان وحقق لهم المساواة، أما في آشور والصين مثلاً فقد انصهروا فلم نسمع عن عداء للسامية في تلك البلاد أو عن هجرة يهودية إلى إسرائيل من الصين.

العبرانيون في الأساس هم قبائل رُحَّل، كانوا يعيشون حياة البداوة، عملوا بالزراعة حين استقروا في أرض كنعان ولم يكونوا تجارًا أو حرفيين كما أضحوا بعد ذلك، ولم يكونوا مرابين، وحتى في القرن التاسع عشر في عصر الاستنارة حينما كان مُرحب بهم في ألمانيا أكثر من أي دولة أوروبية أخرى لما كانوا متساوين مع الألمان حتى أن كثيرين منهم في ذلك الحين قد تخلوا عن يهوديتهم وتحولوا إلى المسيحية، كان اليهود الألمان يعملون في الوظائف الحكومية الهامة، وكانوا جزء لا يتجزأ من الشعب الألماني، ولم يكونوا بمثل تلك الصفات السيئة التي تطلق عليهم أحيانًا في المجتمعات الغربية ويتناقلها الآخرون عن

غير معرفة للسبب الحقيقي، لماذا لا يكون هذا التشويه العرقي هو نتيجة كره الغرب لليهود، وعدم الترحيب بهم في المجتمعات الأوروبية بصفة عامة وهو ما توج بانتشار ظاهرة العداء للسامية في أوروبا.

من ناحية أخرى، نجد أن يهود الولايات المتحدة الأمريكية مندمجون تمامًا في الحياة الأمريكية بل إن معظمهم من فرط حبهم لأمريكا يعتبرون التراب الأمريكي هو أرض الميعاد، وهذا إن دل إنما يبرهن على أن التهمة التي ألصقت باليهود كجماعة منطوية على نفسها، هي من تصنيفات أوروبا الغربية التي لم تعطِ اليهود حقوق المواطنة الكاملة، ولم تشجعهم على أن يكونوا مواطنين لكي يشعروا بالطمأنينة والاستقرار.

ولما كان ما وجده اليهود في أوروبا كما تحدث عنه الأوروبيون والصهاينة أنفسهم، فإن من الطبيعي أن يكون لليهود رد فعل سلبي حتى وإن كانوا الأضعف، إنما رد فعلهم كان من الطبيعي أن يجعلهم يبتعدون ويتحفظون ويكونوا حذرين وحتى مراوغين، وهو ما جعل الطرف الآخر (الأوروبي) يغالي أكثر في عدائه وعنصريته إلى أن أصبح الكره لا يحتمل خصوصًا وإن الغرب كان ينظر إلى المهاجرين الروس "يهود اليديشية" على أنهم جماعات متخلفة ومحافظة، وإلا لماذا لم يجبر اليهود الأوروبيين على الهجرة إلى فلسطين إلا لأنهم أثرياء والمجتمعات الأوروبية في حاجة إليهم.

أما عداء اليهود للأغيار فإنه ليس مطلقًا أيضًا، وإنما لأن الأغيار هم من شرعوا بالعداء حينما احتقروهم، لقد ساعد اليهود المسلمين في الفتح الإسلامي، سواء في فلسطين أو في أسبانيا، كما أن انحلالهم الجنسي غير مطلق أيضًا، فظاهرة الطفل اليهودي غير الشرعي أو البغيِّ اليهودية كانت غير معروفة تقريبًا في أوروبا حتى منتصف القرن التاسع عشر، فما تلك المثالب إلا أنها نقلت عن المجتمعات الغربية فاليهودية لا تدعو إلى الرذيلة والانحلال، وأما الماسونية والعلمانية، فإن اليهودية الأرثوذكسية تعاديهما بشراسة، فاليهود من أكثر الشعوب تمسكًا بعقيدتهم وبالتعاليم الربانية، فربما جاء الوقت لكي نعرف أن

المغتصب الحقيقي لفلسطين هي الدول الغربية التي فكرت كثيرًا وحسبت كثيرًا قبل أن تصنع أسطورة الدولة الصهيونية.

هذا، ولكل ظاهرة سياسية أو اجتماعية هناك عدة عوامل، إذا ما توفرت فإنها تُهيئ المناخ والبيئة المناسبين لكي يتم التفاعل الذي يؤدي إلى نشأة تلك الظاهرة، وما المشروع الصهيوني في فلسطين إلا كان نتيجة ظاهرة وجدت وتفاعلت مع المجتمع الأوروبي، فكان أن تأثرت الحركات الدينية والسياسية والاقتصادية في أوروبا بها، حيث تزامن هذا مع التحولات الثقافية والتنظيمية في الجماعات اليهودية هناك، وهو ما أوجد الظروف الملائمة المُدعَّمة بالأسباب والمصالح المشتركة بين الحضارة الأوروبية وزعماء الجاليات اليهودية، تلك الظروف التي قادت إلى اتفاق العقد الصامت الذي تم على أثر نشأة الظاهرة التي أشرنا إليها، وهو ما أوجد زخمًا ومخاضًا توج بالحركة الصهيونية كمولود كامل ومعافى.

ولما كان معظم يهود العالم في نهاية القرن التاسع عشر يعيشون في دول أوروبا الغربية، فقد كانوا جزء من التشكيل الحضاري الغربي الذي شهد التقلبات الاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية التي أوجدت الدولة القومية، تلك التقلبات التي عملت على فرز الجاليات اليهودية عن المجتمعات التي تعيش فيها، لهذا فإن الصهيونية هي إحدى أذرع الحضارة الغربية التي كان لا بد من خلقها لكي يُثمر الحلف الصامت الذي عُقد فيما بعد بين الصهيونية والغرب، لهذا اعتبر الغرب أن اليهود هم شعب عضوي بمعنى أن اليهود شعب يرتبط أعضاؤه فيما بينهم وبأرضهم التي هي ليست أوروبا بأواصر عضوية لا يمكنهم الفكاك منها، ومن ثم فقد اعتبر اليهود لا ينتمون إلى التشكيل الحضاري الغربي ويقفون على هامش التاريخ، ويُشكلون عناصر طفيلية لا جذور لها في المجتمعات الغربية، لهذا يمكن القول بان الصهيونية كحركة سياسية استعمارية، تم صياغة أيديولوجيتها بشأن القومية اليهودية واستعمار فلسطين كنتيجة للمناخ الإمبراطوري الاستعماري الذي ميز السياسات الغربية في القرن التاسع عشر.

وفي نفس الوقت، علينا ألا نغفل أيضًا، بأن شواهد التاريخ الغربي الحديث تُشير بوضوح كبير إلى أن المشروع اليهودي الاستيطاني كان يتبلور في أوساط المؤسسة الدينية السياسية البريطانية قبل عقود طويلة من ولادة الحركة الصهيونية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، لهذا يمكن القول بإن المؤسسة الدينية المسيحية في بريطانيا بالذات حيث هي معقل البروتستانتية الإنجيلية التي تؤمن بالتفسير الحرفي للعهد القديم، كانت أهم الميادين التي فتحت السبل للحركة الصهيونية بل ولم تكن عقبة في طريق المشروع القومي اليهودي لاستيطان فلسطين.

لقد كان عاملي الدين والأطماع الاستعمارية بأبعادهما الجغرافية السياسية، هما الآلية التي قادت توجهات قادة الفكر والدين والسياسة للإمبراطورية البريطانية لكي تسبق القوى الأخرى في تبني المشروع القومي الصهيوني، لقد كانت بريطانيا تطمع بأن تجلب الثروات والشبكة اليهودية التجارية العالمية حيوية لانجلترا كتلك التي جاء بها اليهود إلى هولندا بعد هروبهم من أسبانيا الكاثوليكية، فمنذ ذلك الحين ومع تعاظم النفوذ اليهودي في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن العشرين، أثر عاملي التحول البروتستانتي ومشروع التوسع الاستعماري على كل ما له علاقة ببريطانيا بالمسألة اليهودية، هكذا وجدت الصهيونية، فكيف تنتهي؟!

منذ زمن بعيد والأمة العربية تحاول النهوض وتعيش معركتها القومية، سواء في صراعها مع الفرنجة أثناء الحروب الصليبية أو مع القوى التي حرمت العرب بقيادة والي مصر "محمد علي باشا" من أن يستعيدوا السيادة العربية من الخلافة العثمانية، أو بعد ذلك صراع التحرر العربي مع الاستعمار الغربي بعد الحرب العالمية الأولى، ومن ثم صراع العرب مع الصهيونية العالمية ومع أوروبا مجتمعة من خلفها، لم يحقق العرب حلمهم بأن تكون لهم دولة موحدة بسبب الفارق الحضاري الذي يسبقهم به الغرب والصهاينة الذين يرتبطون عضويًا بالغرب أيضًا.

ما حدث قد حدث واقتطاع فلسطين في منتصف القرن العشرين من الجسم العربي قد تم بالفعل، وما يحدث في هذا العصر من محاولات من قِبل الفلسطينيين وغيرهم ما هو إلا ردود أفعال وتكيف مع ما تم من حقائق على الأرض أكثر بكثير مما قد يُظن بأنه سيعيد الساعة إلى الوراء أو إلى ما قبل إعلان دولة إسرائيل، لأن من لم يستطع أن يمنع قيام إسرائيل عام ١٩٤٨م حينما كان العرب الفلسطينيون هم الأكثرية في فلسطين لا يستطيع في هذا العصر الذي يفتقد فيه العرب التوازن الاستراتيجي مع الدولة الصهيونية أن يلغيها.

وإذا كان لا بد من قول كلمة للتاريخ، "فإن قصر النظر عند الأنظمة العربية بما في ذلك الزعامة الفلسطينية في الأيام الأولى، من ناحية عدم التقدير الصائب للموقف، وعدم معرفة الظروف المحيطة بالمنطقة وتطلعات القوى العالمية المتنفذة، وعدم معرفة قوة العدو الحقيقية، وعدم تخيل العرب لحجم الكارثة التي ستحل بهم، سواء كان ذلك عند صدور وعد بلفور عام ١٩١٧م، أو عند إعلان دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م بعد ذلك، هذا وللأمانة أيضًا أن العائلة الهاشمية التي ربما هي الوحيدة بين الزعامات العربية التي أدركت حقائق الصراع العربي الصهيوني منذ بدايته، وعرفت من خلال علاقاتها مع البريطانيين، أن إسرائيل ستوجد وإن وجدت ستبقى.

أدرك مبكرًا الأمراء الهاشميون أبناء الشريف حسين، عبد الله وفيصل في ذلك الحين، بعد أن قامت بريطانيا بنفي الشريف حسين إلى جزيرة قبرص خلال الحرب العالمية الأولى، ثم مرضه وموافقة بريطانيا على إحضاره من قبرص إلى عمان، ثم وفاته بعد ستة شهور ودفنه في القدس، أدرك الهاشميون أو تواطأوا كما ظل العرب التقدميون يرددون وينعتون الأسرة الهاشمية بالخيانة، أن الأفضل هو الاعتراف بالصهيونية ومهادنتها، ومحاولة تفادي أن يصبح لها أطماع ومبررات في إمارة شرق الأردن التي أصبحت مملكة فيما بعد، ولذلك حدثت تفاهمات كثيرة بين الهاشميين وبريطانيا العظمى، بدءًا بمراسلات الشريف "حسين بن علي" أمير مكة مع "هنري مكماهون" المعتمد البريطاني بالقاهرة،

وكذلك لقاءات الأمير فيصل وصداقته واتفاقاته مع حاييم وايزمـــان، ومفاوضـــات الأمير عبد الله مع الصهاينة ومع الإنجليز، سواء خلال الاتفاق على قرار التقسيم أو أثناء معارك حرب ١٩٤٨م"، وهكذا أدى الجهل العربي بحقائق الصراع إلى ما آلت إليه الأمور بعد ذلك من كوارث ومآسي، هذا بالإضافة إلى ضـــياع فلســـطين بشكل شبه كامل بدلاً من الانحناء للعاصفة وجعل الخطر أقل ما يمكن وحصره في بؤرة صغيرة حتى يحين الوقت لمعالجته إذا ما تعافت الأمة العربية من أمراضها.

لقد استطاعت الحركة الصهيونية في مناخ صحي ومثالي إلى حد مـــا، أن تتبـــع خطًا منهجيًا، وأن تضفي طابع المشروعية القانونية والدولية لمشـــروع الـــوطن القومي اليهودي في فلسطين، لقد عملت أولاً على عقد حلف صامت بينها وبـــين الحضارة الغربية وتلاقت المصالح لكي يصبح للمادة البشرية اليهودية وظيفة في خدمة القوى الاستعمارية ضمن التحالف في التشكيل الحضاري الغربي، ومن هنا تحول الأوروبيون من أعداء للسامية (لليهود) إلى حلفاء عضويون لهم، وما زال نجم الصهيونية يسطع في سماء الكرة الأرضية منذ أن حصلت على مشـــروعية قانونية دولية، وراح ينتقل من نجاح إلى نجاح، وما زال في صـــعود، ومـــا زال النفوذ الصهيوني يترسخ في أوروبا الغربية والأمـــريكتين، واســـتطاع أيضًـــا أن يحتل بسهولة وكفاءة مراكز الإعلام في دول المنظومة الاشتراكية سابقًا بما فـــي ذلك روسيا.

في لقاء تلفزيوني على إحدى القنوات العربية مع سفير فلسطين في موسكو فـــي إحدى السنوات، سُئل السفير: كيف تبدو القضية الفلسطينية في نظـــر الإنســـان الروسي في موسكو؟ أجاب السفير بأن الإعلام مسيطر عليه من قِبـــل المؤيـــدين لإسرائيل، ولهذا فإن الغالبية هنا في موسكو متأثرون بالدعاية الصهيونية!

وفي مقال قيم للكاتب الدكتور "نضال صالح" نشر في "شبكة العلمـــانيين العـــرب بتاريخ ١٢مارس ٢٠٠٩م"، تحدث فيه عن صعوبة إيجاد دار نشر لطبع كتاب له عن فلسطين باللغة المحلية في شيكوسلوفاكيا، التي كانت إحـــدى الـــدول ضـــمن المنظومة الاشتراكية في عصر وجود الاتحـــاد الســـوفييتي، قـــال: "الصـــحفيون

الصهاينة استولوا على الإعلام المرئي والمقروء في شيكوسلوفاكيا ولم يبق لنا ولا لمن بقي لنا من الأصدقاء الخلص أي مكان حتى ولو صغيرًا في هذا الإعلام نشرح فيه قضايانا، وبدأت القضية الفلسطينية تختفي من الساحة وظهر مكانها اليهودي الديموقراطي المسالم الذي عاد إلى أرضه فلسطين، أرض الميعاد، الفلسطيني في هذه الصورة إرهابي يريد أن يسلب حق اليهود التاريخي في فلسطين ويحرمه من حق العودة إلى أرض الميعاد، وانتشرت الأفلام التلفزيونية والسينمائية التي تتحدث عن معاناة اليهود وعن المحرقة أو الهولوكوست وصدرت القوانين التي تحرم التشكيك بالصيغة الرسمية للهولوكوست إلى جانب القوانين التي تمنع أي مظهر من مظاهر اللاسامية وتعاقب بالسجن المتهمين بها، لقد نشأ جيل جديد من الشباب لا يعرف عن الفلسطينيين وقضيتهم إلا ما يشاهده وما يقرأه في الإعلام، أما في جبهة الجاليات العربية والفلسطينية فلقد وقع العرب في حالة تخبط غذتها الانقسامات المزمنة، والخوف على الوضع الاقتصادي والاجتماعي إلى جانب الجهل المعلوماتي عن القضية، وكيفية مخاطبة العقل الشرق أوروبي الذي أصبح مهووسًا بالديموقراطية الجديدة وكانت القضية الفلسطينية مربوطة في ذهنه بالنظام التوتالي الشيوعي".

فصحيح أن اليهود ظلوا يحلمون منذ عقود طويلة غائرة في القدم بوطن يهودي يلم شتاتهم، وحيث أن مفكريهم قالوا إن الحاجة لإقامة وطن يهودي قديمة منذ السبي البابلي حسب اعتقاد المتدينين منهم الذين اعتقدوا بأن أرض الميعاد قد وهبها الله لبني إسرائيل، لكن حلمهم هذا لم يتحقق إلا بعد أن استوجبت ذلك مصالح القوى الاستعمارية الأوروبية أولاً، من هنا كان المناخ الذي أوجده عصر التنوير في أوروبا ونشوء الدولة القومية، فكانت التربة الأوروبية الاجتماعية الصالحة التي نشأت فيها الحركة الصهيونية الحديثة، التي تم إشهارها في المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧م.

الحقيقة أن الجهود الغربية قد تضافرت وتبنت الصهيونية في قلب الوطن العربي، وأصبح الحفاظ على أمن إسرائيل واستمرارها هدفًا استراتيجيًا غربيًا، يتحكّم في

السياسات الغربية تجاه الوطن العربي، هذه السياسات التي حرصت على تمزيق الوحدة العربية، وتفكيك الروابط المشتركة بين العرب، وإثارة النعرات الطائفية، والعمل بكل الوسائل على ترسيخ التخلف والتأخر بين أبناء الأمة العربية بقدر المستطاع، لقد بقيت فلسطين منذ إعلان ديفيد بن غوريون قيام إسرائيل في ١٤ مايو سنة ١٩٤٨م جرحًا ينزف ويوجع العرب والمسلمين والشرفاء في كل مكان من العالم، وما تزال القضية الفلسطينية من أكثر القضايا العالمية التي استرعت اهتمام الباحثين الذين سعوا لتحليلها، لكن لماذا أعطيت إسرائيل كل هذا التأييد وكل هذا الدعم الغربي!

لقد كانت الدولة الصهيونية دولة وظيفية منذ أن كانت في العقول مجرد فكرة يتقاذفها بينهم زعماء اليهود والقيادات السياسية في مجتمعات التشكيل الحضاري الأوروبي الغربي، كانت الفكرة تقوم على قاعدة استغلال الغرب والصهيونية للدين اليهودي والمسيحي معًا، وكانت تقوم على منطق العقلانية والشعب العضوي وما شابه، ولم يكن لدى الغرب جواب إيجابي على سؤال: لماذا الفلسطينيين؟ لهذا يخطيء الكثيرون منا حينما يعزون قيام إسرائيل إلى قوة اليهود وكبر إمكانياتهم المادية، لأن لا المال اليهودي ولا التأثير الثقافي أو الاجتماعي كان يكفي لأن يُشرع في إنشاء دولة لليهود في فلسطين إذا لم تكن الرعاية والتأييد على كل المستويات من الدول الغربية لقيام هذا الكيان.

ما نود أن نقوله هنا، ونكرره ونؤكده مرات ومرات، هو القول بإن المصلحة الأوروبية كانت تتقدم على المصلحة الصهيونية اليهودية في مشروع الوطن القومي اليهودي، لذلك تبنى الغرب المشروع الصهيوني منذ البداية، ولهذا لا نجد دولة أوروبية واحدة، صغيرة أو كبيرة، استعمارية أو تقف على الحياد، كانت قد رفضت وعد بلفور حينما أصدرته بريطانيا عام ١٩١٧، إن كان فضل للصهيونية في إقامة دولة إسرائيل فإنها قد أدركت أن باستطاعتها التعاقد مع الغرب والتركيز على المصالح المشتركة بينهما فكان لها دور الدولة الوظيفية، وهو نفس الدور القديم الذي كان اليهودي يقوم به عند سيده على الصعيد الفردي حينما كانت

الجماعات اليهودية تعيش في دول العالم، ولم يتغير هذا الدور الآن سوى أن الوظيفة أضحت بحجم دولة للقيام بخدمة السيد أي الدولة العظمى، فكان الدور ملائمًا ومعروفًا وقابلاً للتطبيق لأنه مجرب في الماضي على الصعد الفردية وأصبح جزء من التراث اليهودي على مدى القرون.

وهذا يذكرنا بالأسباب والأسلوب والدور الذي قامت من أجله الحروب الصليبية في الماضي، وكيف نشأت الإمارات الصليبية في المشرق العربي ولمن كانت مرجعيتها ولمن كانت تقدم خدماتها، وإذا تذكرنا بأن لليهود أيضًا مصلحة في إنشاء الدولة الصهيونية، فسيكون التحالف بين الدولة الصهيونية والغرب أكثر إلحاحًا من نظيره حين الإمارات الصليبية مقارنة بالماضي إبان الإمارات الصليبية كان الغرب هو الذي يعطي ويدعم بالمال وبالمهاجرين للغزوات والإمارات الصليبية، وفي حال الصهيونية فإنه عوضًا عن الدعم والتأييد الغربي لإسرائيل فإن الصهيونية في حد ذاتها تُمثل أيديولوجية لها خصوصيتها ولها روافدها التي تُغذيها بكل شيء عوضًا عن الدعم الغربي، من هنا نجد أن ثقافتين أو أكثر يرعيان الدولة الصهيونية، الغرب ويهود العالم الطرفان اللذان تلتقي مصالحهما، فعلى أساس هذه المصلحة وهذا التحالف بين القوى الجبارة قامت إسرائيل، من أجل مصالح الغرب ونفوذه في بلاد العرب، ومصالح الصهيونية العالمية بالرعاية والإنفاق الغربي، كل ذلك تم تحت ما سمي حل المسألة اليهودية في أوروبا.

إن من العوامل التي ساعدت على تحقيق الهدف الصهيوني الغربي المشترك، أنه بالرغم من أن زعماء الحركة الصهيونية كانوا من الملاحدة الذين ينتمون إلى الدين اليهودي بالاسم فقط، فإنهم استغلوا بمهارة الديانتين اليهودية والمسيحية لتحقيق أغراضهم، فراحوا يدعون إلى إقامة وطن لليهود في فلسطين، مؤكدين أن هذا الحدث سيحقق النبوءات التوراتية، وإن قيام دولة يهودية في فلسطين هو مؤشر على اكتمال الزمان والعودة الثانية للمسيح، يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري في "موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية" نقلاً عن القس "جيفري فالويل" مؤسس جماعة الأغلبية الأخلاقية: "إن من يؤمن بالكتاب المقدس حقًا

يرى المسيحية ودولة إسرائيل الحديثة مترابطتين على نحو لا ينفصم، إن إعادة إنشاء دولة إسرائيل في العام ألف وتسعماية وثمانية وأربعين لهي في نظر كل مسيحي مؤمن بالكتاب المقدس تحقيق لنبوءات العهدين القديم والجديد".

المفارقة أن كثيرًا ممن تحدثوا عن الصهيونية وعن دعم المسيحية الأوروبية لقيام إسرائيل نسوا أن أوروبا هي مجتمعات لا دينية، لكن لا مانع لديهم من استعمال الدين في خدمة السياسة، وهو ما يشبه حينما يأتي المبشرون بالمسيحية إلى الدول والمناطق في العالم، ثم يأتي بعدهم الاستعمار لاستعباد الشعوب ونهب خيرات البلاد.

وعلى هذا فقد لعبت الدوافع للمصالح والنفوذ والتفوق دول الغرب إلى تأييد المشروع الصهيوني كاستثمار جديد لتحقيق المكاسب، والتقى هذا مع طبيعة النظام الرأسمالي القائم على المنافسة والتفوق المادي على الغير، فهو لا يهاب وازع ديني أو أخلاقي حينما يكون هدفه الوصول إلى الربح المادي، فعالم المادة يؤمن بأن الغاية تبرر الوسيلة، وأن البقاء للأصلح فإما أن تكون متفوقًا منتصرًا رابحًا وإما أن تكون الخاسر وفي موقع أدنى، هذا وبسبب التنافس على المستعمرات فقد اكتوت أمم كثيرة من آثار حربين عالميتين طاحنتين نشبت بين دول أوروبا الاستعمارية التي يجمعها الدين والثقافة الواحدة والعرق، فلا نتعجب إذا رأينا التأييد الغربي لقيام إسرائيل على حساب العرب الذين تجمعهم أيضًا مع الغرب عداءات تاريخية لم يستطع الغرب المسيحي نسيانها حتى الآن.

إن الكثيرين من العرب من أصحاب الرأي، ينظرون إلى حجم التضحيات التي يتكلفها الصراع العربي الصهيوني في فلسطين وما يسبب من إرهاق للعرب، كأنهم يظنون بأن أصل المشكلة هو ما يكلفه الصراع مع الصهيونية وحسب، أو هو ما أوصل مجتمعاتنا إلى مرحلة اليأس أحيانًا، تلك المجتمعات التي آمن هؤلاء بتخلفها الأزلي وبعدم قدرتها على النهوض أمام عاصفة الصهيونية العاتية التي يُدعمها الغرب، ويرى هؤلاء بأن الانتصار على ذلك يحتاج إلى معجزة، أو بوجوب حدوث انقلابات عسكرية لتغيير الأنظمة الحاكمة في الأقطار العربية كما

حدث في ستينات القرن العشرين مثلاً، أو بوجود حلول سلام لا تقوم على توازن استراتيجي مع أداة الصهيونية العالمية إسرائيل لأجل أن يكون سلامًا عادلاً، أو بمحاولة إقناع الغرب كما يسعى بعض الزعماء العرب باستبدال دولة عربية وظيفية للغرب بدلاً من إسرائيل في المنطقة.

يجب ألا يغيب عن أي كيان عربي بأن التخلي عن نصرة فلسطين لن يحمي العرب من طمع الغرب، ونهم الصهيونية التي تسعى إلى ما هو أكبر بكثير من حجم فلسطين، فقد يغيب عن العرب بأن الصهيونية قومية يهودية سامية تسعى إلى ميراث القومية العربية السامية أيضًا، وأن الصهيونية بزخمها العالمي ونفوذها وإمكانياتها وتسلحها بالمدنية الحديثة وتنظيمها الذي لا يُضاهى لن يكفيها فلسطين فقط، ولن تقبل أن تظل تعيش دولة إسرائيل في عداء دائم مع جيران لا يقبلون وجودها بسبب صدام الحضارات الذي لن يختفي لأن التاريخ مستمر والأحداث لن تتوقف، لذا فإن الصهيونية ستظل جاهدة إلى أن تجعل العرب مناطق وأقاليم وكيانات، وفي أفضل الأحوال ستجعلهم رعايا للإمبراطورية الصهيونية اليهودية الإسرائيلية، التي سرعان ما تتوازن مع أوروبا إذا ما تحول الوطن العربي بمئات ملاينه إلى رعايا لإسرائيل العظمى، وقد يظن بعضنا أن هذا الرأي مجرد خيال لن يكون له أثر أبدًا على أرض الواقع، إن مؤشرات أن يتحقق الحلم الصهيوني والسطوة اليهودية على الوطن العربي قد بدأت، ألم تُقام إسرائيل رغم أنف كل العرب، فماذا يمنع غدًا مادام العرب لم ينتجوا شيئًا بالمقارنة حتى الآن ولم يأخذوا بأسباب الحضارة، أن يحدث أي صنف من أنواع السلام أو التطبيع بين إسرائيل والعرب جميعًا أو مع هذه الدولة العربية أو تلك، فالعرب لديهم البترول ولديهم العائد المادي وهم أسواق استهلاكية مثالية للمنتجات والخدمات الإسرائيلية التي لن تجد من ينافسها من دول العالم، لرخص التكلفة بسبب استخدام الأيدي العاملة العربية الرخيصة ذات الأجر الأقل كثيرًا مقارنة بأجر العامل في دول الغرب عوضًا عن قربها من الأسواق العربية النهمة، فما أن يمضى زمن قُل خمسة وعشرين عامًا إذا ما طبع العرب مع إسرائيل، إلا وتُصبح إسرائيل مهيمنة

على كل شيء في الوطن العربي، وسيكون العرب الأغنياء بحاجة ماسة إلى منتجاتها وخدماتها الرخيصة نسبيًا، ويكون العرب الفقراء بحاجة ماسة إليها أيضًا لإيجاد العمل لأبنائهم، وحين ذلك ستضاف اتفاقيات اقتصادية وجمركية وما شابه بين العرب وإسرائيل على نمط اتفاقيات المنظمة العالمية للتجارة (جات) التي أضحت تتدخل في شئون الدول الموقعة عليها، وتتحكم في اقتصادياتها.

لا شك بأن العرب من غير الفلسطينيين يعون أيضًا خطر وجود إسرائيل، وهم يقدمون دعمًا وتأييدًا للفلسطينيين ولكن بمقدار وعيهم للقضية الفلسطينية، وكلما زادت معرفتهم بالخطر الصهيوني سيقدمون دعمًا أكبر حتى يصل إلى إدراك الخطر الصهيوني الكامل، وحينها سيتحملون المسئولية، فقضية فلسطين ليست منفصلة بأية حال من الأحوال عن القضايا الحضارية للأمة العربية، لأنها نتيجة طبيعة لمشكلة العرب الكبرى.. مشكلة التخلف الحضاري، التي جعلتهم رهينة لحلفاء إسرائيل ومن أوجدوها من دول الغرب، فماذا يُنتظر من الولايات المتحدة والغرب بصفة عامة، سوى أن يرضخ العرب ويقبلون ما تمليه عليهم إسرائيل.

في ٤ يونيه ٢٠٠٩م، وجَّه الرئيس الأمريكي "باراك أوباما" من جامعة القاهرة، خطابًا هامًا إلى العرب والمسلمين، كانت فيه المصلحة الصهيونية هي الأقوى حضورًا، من أهم ما قاله أوباما في الخطاب عن السلام بين العرب والإسرائيليين: "شعبان لكل منهما طموحاته المشروعة ولكل منهما تاريخ مؤلم يجعل من التراضي أمرًا صعب المنال، إن توجيه اللوم أمر سهل إذ يشير الفلسطينيون إلى تأسيس دولة إسرائيل وما أدت إليه من تشريد للفلسطينيين، ويُشير الإسرائيليون إلى العداء المستمر والاعتداءات التي يتعرضون لها داخل حدود إسرائيل وخارج هذه الحدود على مدى التاريخ، ولكننا إذا نظرنا إلى هذا الصراع من هذا الجانب أو من الجانب الآخر فإننا لن نتمكن من رؤية الحقيقة"، وهنا الرئيس الأمريكي يقول للعرب، ليس لكم خيار إلا القبول بالأمر الواقع.. القبول بإسرائيل، وعليكم أن تنسوا ما حدث قبل ذلك.

نستنتج من هذا، أن الحركة الصهيونية هي حركة استعمارية وظيفية ذيلية في التاريخ الاستعماري الحديث، لأنها حركة وجدت لكي تخدم الحركة الاستعمارية الغربية، فلم تكن الصهيونية في يوم من الأيام حركة مستقلة، وها هو تاريخها قديمًا وحديثًا يشهد بذلك بل ومنذ أن تأسست، وهو ما انعكس على الدولة الإسرائيلية التي ظلت تعتمد على الغرب بصفة عامة، الصهيونية هي في خدمة أي دولة غربية لأنها وجدت ضمن التشكيل الحضاري الغربي كما أسلفنا، وهي منذ البداية في خدمة الغرب، لأنها أراحت المجتمعات الأوروبية من المهاجرين اليهود الروس، الذين تدفقوا على أوروبا الغربية منذ القرن التاسع عشر أو الذين ما زالوا حتى يومنا هذا يغادرون إلى دولة إسرائيل بدل أن كانوا يتوجهون إلى أوروبا الغربية.

وبهذا.. فأوروبا أوجدت إسرائيل لكي تحل المشكلة اليهودية العالمية التي كانت مصدر تهديد اجتماعي وثقافي لأوروبا نفسها، فعملت الدول الشرقية والغربية على تفادي المشكلة اليهودية وتم حلها على حساب العرب، أما لماذا فلسطين بالذات.. لأنها مفصل جغرافي هام في المنطقة، فمن هذا المفصل كانت تأتي الغزوات من أوروبا، وكانت تتجه شمالاً وشرقًا وغربًا، وكان هذا المفصل هامًا دائمًا في توحيد المنطقة بل ومنذ أيام الفراعنة حينما كانوا يحكمون مصر والشام، عندما فتح المسلمون الشام رأوا أن من الضروري فتح مصر لحماية الشام فكان فتح فلسطين أولاً، ونفس الشيء فعله كل من صلاح الدين الأيوبي ومحمد علي باشا حينما وحدا مصر والشام، لهذا فإن إسرائيل بالنسبة للغرب، تعتبر من أهم الدول في منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط.

ما دام الأمر على هذه الصورة القاتمة، ورغم كل ما سبق، إذن على العرب أن يدركوا قبل فوات الأوان، وبعد أن ضاع الكثير، بأن لا أمريكا ولا الغرب عمومًا سيعيدون للعرب الفلسطينيين حقوقهم الكاملة، وما دام الأمر على هذه الشاكلة في هذا العصر، فربما من الأفضل أن يقبل الفلسطينيون حلاً حسب الرؤية الأمريكية التي تجد مبررًا لفرض حل يُعطي شيئًا للفلسطينيين، ذلك لحاجتها للبترول العربي

في هذا الزمن، ومهما كان هذا الحل مجحفًا بحقهم، فهو أفضل من لا شيء خصوصًا قبل أن تزداد خسارة الفلسطينيين وتتفاقم مأساتهم، ما ترغبه أمريكا لمجاملة العرب اليوم قد لا ترغبه إذا لم تعد بحاجة إلى البترول العربي غدًا، فبعيدًا عن المزايدات بالشعارات الوطنية، فإن من المهم هو الحفاظ على بيضة الحق العربي في فلسطين وتركها للأجيال القادمة، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه الآن بواسطة الحل الذي يمكن أن ترعاه أمريكا وذلك قبل فوات الأوان، وليسميه العرب هدنة أو سلامًا أو حلاً أو ما يروق لهم، فالمهم أن يبق شيئًا أمام الدنيا اسمه كيان فلسطيني، ذلك قبل أن يتم طمسه تمامًا، بعد أن أصبح ما تبقى من فلسطين، اسمه قطاع غزة، ويهوذا والسامرة، والمناطق!

لاشك بأن السلام الذي تنشده أمريكا لإسرائيل مع العرب أو ما يسمى بالتطبيع، هو من الاستراتيجيات الصهيونية، ومعناه تحويل آليات الصراع إلى آليات للسلام والتقارب والتبادل السلمي في كافة المجالات خصوصًا الاقتصادية، وليس هذا فحسب بل ويهدف إلى إعادة تشكيل العقل العربي وتغيير تصوراته عن الصهاينة، مما قد يقود إلى تغيير سلوك الإنسان العربي تجاه إسرائيل، ذلك لكي تصبح الأخيرة مقبولة في المنطقة، نعم هذه هي الحقيقة، وما التغلغل الصهيوني في هذا الزمن عبر وسائل الإعلام العالمية من صحف ومطبوعات وقنوات تلفزيونية وسمعية، وما تبثه هذه الأدوات من تغيير في المفاهيم والتصورات، إلا أنها آليات دعم تساهم كثيرًا في كسب التعاطف ناحية الصهاينة اليهود حتى أصبح من يقاوم الاحتلال الإسرائيلي في هذا الزمن إرهابيًا ومجرمًا بحق الإنسانية.

ومع ذلك وبحسبة بسيطة وبصراحة، إن السلام حسب الرؤية الأمريكية، مطلب وحاجة ملحة للشعب الفلسطيني في هذه المرحلة، فمهما كانت الرؤية الأمريكية مجحفة بالحق العربي، ما دام الإطار العام لتلك الرؤية، هو حل الدولتين بما يعني ذلك من استحقاقات للدولة الفلسطينية على إسرائيل وأمريكا وباقي أعضاء اللجنة الرباعية الدولية المشتركة، وحتى لو حدث ذلك، فلن تنسى بل وليس متوقعًا أن تنسى الأجيال العربية ما حل بالفلسطينيين بسبب الهجمة الاستيطانية الاستعمارية

الصهيونية في القرن العشرين أو كذلك، بل إن ازدهار تكنولوجيا الإعلام والتطور الذي وصلت إليها هذه التكنولوجيا، ستجعل الأمة العربية تحتفظ بالصور وبكل ما قيل وما كتب عن فلسطين وأهلها، مهما كان هناك من تعتيم أو تضليل على مدى الأيام، فالسلام والتطبيع مع إسرائيل في العصر الآني، قد يكون مفيدًا وصحيًا للعرب والفلسطينيين بالذات، وذلك لالتقاط الأنفاس وإشفاء الجروح، ولم الشتات، وبدء استعمال العقل كما يجب، فما لم يستطع الفلسطينيون الحصول عليه من خلال المقاومة، فليكن بالسياسة والمفاوضات أو أليست المقاومة المنتصرة، تبدأ باسترجاع ما فقدته جزء جزء! لماذا لا تكون استعادة بعض الحقوق بالسياسة أو بما نسميه عملية السلام، ما دمنا لا نستطيع بغير ذلك؟!

بعيدًا عن شطحات وتشنجات وتدرنات الفكر العربي المهزوم والمأزوم، لا بد من الاعتراف، وقول الحقيقة، بإن هناك شرخًا واسعًا نسبيًا بين المفهوم العام عند الإنسان اليهودي، وبين المفهوم العام عند الإنسان العربي، خاصة عند اليهودي القادم إلى إسرائيل من الغرب الذي أكسبه الترحال واختلاط الثقافات، ما يمكن أن يكون نافعًا له، ويعمل على تحصينه أمام التحديات، الإنسان العربي بصفة عامة، من ناحية أخرى، يعيش الثقافة العربية الإسلامية الشرقية، ولم ينضج بعد تفاعله مع الفكر الدنيوي العالمي، ولم يتح له ما قد أتيح للفرد اليهودي بسبب أربعمائة سنة تحت الحكم العثماني الذي كان فيه معزولاً عن النهضة الغربية إلا ما ندر، في حين أن اليهود تكدسوا في أوروبا الغربية وعاشوا عصر النهضة الأوروبية الحديثة، وهذا ما جعلهم فلاسفة ومفكرين ومخترعين ومشاركين في كل ميدان، ليس لأنهم من عرق متفوق كما يدعون أحيانًا، ولكن لأنهم عاشوا في مجتمعات أعطتهم الفرص كبشر أن يبدعوا، لهذا نجد أن الفكر الصهيوني كان غنيًا منذ بدايته، وكان صلبًا منذ أن أعلن عن إنشاء الحركة الصهيونية فالدولة الإسرائيلية.

إن جوهر الفرق بين الثقافة العربية الإسلامية وبين الثقافة الصهيونية اليهودية، هو أن مجلس الحاخامية أعطى الحاخام أن يكون المرجع الديني العصري للجماعات

التي تتبعه حيث يستطيع أن يشرع في أمور الدنيا حسب قناعاته في زمن معين، فالديانة اليهودية مثلاً تبيح تعدد الزوجات، لكن حاخامات أوروبا أفتوا بعدم وجوب ذلك حتى لا يعترض عليهم ميسيحيو الغرب اللادينيين، في مقابل ذلك ظل التشريع الإسلامي كما هو منذ القرن التاسع الميلادي، واقتصر على العبادات والحلال والحرام، فكان طبيعيًا أن تنشأ الدولة الصهيونية في فلسطين كجسم عضوي غربي استعماري قوي ما دام الغرب قويًا.

إن تعدد الآراء والنظريات والمقولات والتفسيرات الصهيونية التي تصادمت إبان تشكل الحركة الصهيونية وتطورها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، جعل الحركة الصهيونية تبنى صرحًا صلبًا متراصًا من الآراء والفلسفات، ومن القناعات والوضوح والإيمان بالهدف، وظل بناؤها يعلو ويعلو وما زال يعلو حتى يومنا هذا، لأن الفكر الصهيوني لم يهدأ ولم يستكن ولم ينم، وبمقارنة بسيطة فإن الفكر القومي العربي يتقهقر ويتراجع وينحسر وما زال، سرعان ما استيقظ في أواخر أيام الدولة العثمانية، فنجده منذ عام ١٩٤٨م وحتى لحظة كتابة هذه السطور في تراجع مستمر وعودة إلى الوراء مقارنة بالآخرين، وهو يمضي للأسف إلى الإلغاء حتى أصبح مفهوم الدولة الإقليمية العربية أقوى وأهم من مفهوم الوحدة القومية.

لقد أصبح العمل الآن على إلغاء الفكر القومي من مناهج التربية والتعليم العربية بصفة عامة إلا ما ندر في بعض المجتمعات العربية، وأصبح تاريخ دولنا العربية الإقليمية لا يتجاوز الستين عامًا للدولة الواحدة في أحسن الأحوال، هو عمر حصول الإقليم على الاستقلال بزعامة من وافق عليه من منح هذا الاستقلال.. في الوقت الذي يدعي فيه الصهاينة بأن لهم تاريخ سياسي يتجاوز ألفي عام، ولا يكلون عن تأكيده في كل يوم، ولا يكتفون بتعليمه لأبنائهم فقط بل يلقنونه للبشرية جمعاء حتى تفهمهم وتتعامل معهم وتؤيدهم في المحافل الدولية المختلفة على هذا الأساس.

لقد غاب عن العرب أن الدولة الإقليمية لا تستطيع استيعاب التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الداخلية والخارجية بعيدًا عن عمقها القومي التي تتجذر فيه أسس هذه التغيرات، لهذا نشأ خلاف وشوشرة وعجز واختلطت الأشياء، ولم يكن هناك تبادل للحكم بطريقة ديمقراطية، فظل الحال يحبو أو كما هو الحال.

من هنا يمكن أن نتخيل كيف أن اليهود متفوقون على العرب ليس بالمظهر التنظيمي والحضاري والصناعي بل بالتفوق الفكري، لأن لا الصناعة ولا الحضارة يمكن أن تتحققا إلا بالفكر الذي يقود إليهما.